

ترجمات المستشرقين في معيار الترجمة

عبد الحميد بن الشيخ
معهد الترجمة، جامعة الجزائر 2

الملخص:

يحاول المقال التعرض إلى بعض المثالب التي وقع فيها المستشرقون، أثناء ترجماتهم للتراث العربي الإسلامي، بسبب ابتعادهم عن مناهج الترجمة، كعلم له أصوله.

واستغلال الاستراتيجيات وأساليب الترجمة لتحريف النصوص المترجمة، بدوافع إيديولوجية ولأهداف استعمارية تارة، ونوازع بشرية أخرى، أقل ما يقال عنها أنها تحول دون عملية التلاقح الحضاري، وتعرقل المثقفة كميزة تميز الفكر البشري بصورة عامة؛ عن طريق بث الأحقاد بين المجتمعات، مما يؤدي إلى نمو وتطور روح العداء عوض محاولة فهم الآخر، وتجاوز عقدة الاستشراق.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، الترجمة، التراث العربي، أساليب الترجمة.

Résumé

L'article tend à soulever certaines lacunes commises par les orientalistes dans leurs traductions du patrimoine arabo-musulman à cause de leur éloignement des méthodes de traduction comme science qui dispose de ses propres bases, et ce pour des causes

idéologiques, et parfois des objectifs colonialistes ainsi que des raisons subjectives, le moins qu'on puisse dire est qu'elle entrave des processus d'inter-culturation et d'acculturation comme caractéristiques de la pensée humaine en générale et ce, en cultivant les rancœurs entre les sociétés ce qui favorise des rapports d'hostilité au détriment de la compréhension de l'autre et du dépassement du complexe envers l'orientalisme

مقدمة:

إذا انطلقنا في الحديث عن الإستشراق من أعمال المستشرقين أنفسهم فيجب أن نعود إلى أصول الترجمة و مبادئها كعلم من جهة وكفن من جهة أخرى، على اعتبار أن هناك من يرى أن الترجمة الأدبية هي فن قبل أن تكون علم، لأن ترجمة الآثار الأدبية تعتبر فنا راقيا، لإستنادها على خصائص الأدب ومكانته أولا، حيث أن النص الأدبي يسخر الأساليب البلاغية والصور البيانية كالتشبيه والاستعارة والكناية، لتقديمها في قالب مبتدع يحدث هزة في السامع والقارئ.

كما أن الترجمة تستند إلى مبادئ لا يمكن التخلي عنها أو تجاوزها لأنها علم قائم بذاته تحكمه نظريات عديدة يؤدي الإخلال بهذه النظريات أو عدم أخذها بعين الاعتبار إلى تقديم عمل ترجمي مشوه يتنافى ورسالة الترجمة باعتبارها رافدا حضاريا لا يمكن إغفاله.

(1) الإستشراق قديما وحديثا: إذا كان الإستشراق علم قائم بذاته يهتم بدراسة كل ما يتعلق بالشرق وحضارته (سميلوفيتش، 1983: 208). فإن صاحب هذه المقولة يرى أن « بداية الإستشراق تعود إلى القرن الثامن الميلادي، عندما بدأ الأوروبيون تلقي العلم في المراكز العربية الإسلامية العلمية في صقلية والأندلس، على يد الفلاسفة العرب (سميلوفيتش، 1983: 209)

ولعل هذا الاتصال الغربي بالشرق أثمر بترجمات كثيرة مهدت للحضارة الغربية، ففي القرن السابع عشر بلغ عدد الكتب المعروفة في الشرق التي ترجمت إلى اللغات اللاتينية أكثر من مائة كتاب حسب تعبير ماري لويزادوفرانس (Marie Louisa deFrance) في كتاب 'الشرق'.

ومن الكتاب الغربيين الذين استلهموا كتاباتهم من الكتب الشرقية المترجمة نجد: قوتيه ودورنييه وبيارلويس ومارك توين (Mark Twain).

وفي هذا الإطار نذكر أن هناك من يقول أن فولتير - Voltaire قال: "إنني لم أصبح قاصا إلا بعد أن قرأت ألف ليلة و ليلة أربع عشرة مرة"، (عبد الغني، مصطفى. شهرزاد في الفكر العربي الحديث. ص: 22).

أثر الشرق في الغرب:

للحديث عن أثر الثقافة العربية الإسلامية في الغرب يجب أن نعود إلى رأي بعض المستشرقين في الموضوع، حتى لا نتهم بالترجسية أو التعصب للذات أو عقدة رفض الآخر أو التمولع الدفاعي أو المغالاة في الاعتداد بالنفس أو أي شكل من أشكال الإرهاب الفكري الذي يتهم به المسلمون عادة بحجج غير مبررة تبريرا منطقيا.

ولذلك فيكفي للدلالة على تأثير الشرق في الغرب أن نعود إلى رأي (فريدريك فون ديرلاين) الذي يرى أن ازدهار الحكاية الخرافية بدأ منذ القرن الحادي عشر في الشرق. ومن المعروف أن أوروبا عرفت الحضارة الشرقية وأطلت على علومها وآدابها منذ الحروب الصليبية، ثم توالى المؤثرات حيث احتكت بالقسطنطينية (اسطنبول) شرقا، والأندلس وصقلية غربا .

يقول لويس يونغ في كتابه "العرب وأوروبا" إن الاهتمام الأوروبي بالحضارة العربية تم من خلال الوجود العربي في اسبانيا وصقلية والغزوات الصليبية، ويندرج هذا الاهتمام في شكلين الأول كان الاهتمام في العصور ناتجا عن الإدراك بالتفوق العربي الإسلامي فحاولوا نقل ما توصل إليه العرب من علوم إلى اللاتينية .

أما الشكل الثاني - في العصر الحديث - الذي دفع الأوروبيين إلى الاستشراق، فقد كان محكوما بتأثير الهواجس الاستعمارية. (يونغ، 1983: 220)

وفي الحقيقة أن هذه الإستشهادات تندرج و تؤكد على التلاحق الفكري والحضاري الذي تتميز به الثقافة بشكل عام، خاصة أن السمات الثقافية قد تكتسب من خارج المجتمع الذي يعيش فيه الأفراد وتستعار من المجتمعات الأخرى. وإذا كانت الحضارة الغربية الآن تتفوق على غيرها من الحضارات وخاصة ما يعرف بالحضارات الشرقية فإن ذلك يعود إلى أنه "إذا كانت الثقافة المادية تتضمن كل الأشياء المادية في نسق معين وتعبّر عن المستوى المادي للثقافة فإنها لا تختلف عن الثقافة الفكرية وغير المادية التي تمثل المستوى الثاني للثقافة لأن أساس الثقافة موجود في العقل الإنساني، ولا قيمة للأشياء المادية إذالم يوجد العقل والمعرفة التي تستطيع استخدامها " (جلبي، 1989: 97)، ولا شك أن العقل والمعرفة التي استخدمها الغرب في بناء حضارته أخذت عن الشرق كما أشرنا إلى ذلك .

ومن أبرز الأعمال الأدبية العربية التي ترجمت إلى اللغات الأجنبية نجد رباعيات الخيام التي ترجمها إلى الإنجليزية إدوارد فيتزجيرالد (Edward

(Fitzgerald). ونشرت في أربع طبعات في 1859م، 1872م، 1879م. ويقول هذا المستشرق أنه ابتعد عن النص الأصلي عن وعي لأنه كان يريد -باعتباره أدبيا- نظم قصيدة أصلية تشبه قصائد الرباعيات و قد صرح بذلك للمستشرق (إدوارد بيلس كويل) من جامعة كامبريدج -هو أديب أيضا- وقد حاول أن يكسب إقتباسه وحدة وبنية فنية لا توجد في النص الأصلي، ولم يعب عليه النقد، خروجه عن النص الأصلي.

وقد حاول أن يربط عمله الأدبي بالنص الأصلي،-رغم عدم إلتزامه بقواعد الترجمة وأسسها- فبرر ذلك بقوله أنه وجد في عمر الخيام نفسا شبيهة بنفسه تعاني من نفس الأحوال الوجودية وتتألم لخيبة ظنها في الدين الذي لم يستطع أن يقدم لها حقيقة ولا سلوى.(حمات، 1978: 43).

ولعل هذا الرأي يتفق في المبدأ مع رأي المستشرق (إدوارد لين) صاحب كتاب (آداب المصريين المحدثين وعاداتهم) الذي جعل هدفا له الكشف عن مصر الفرعونية وحضارتها القديمة، ثم إنجذابه إلى الشرق كمجتمع حضاري قديم ، مغاير في طبيعته للمجتمع الأوروبي الحديث، فقال أنه جاء إلى مصر بإعتبارها الشرق ووطن "ألف ليلة وليلة" ويضيف

« كان هدفي تعريف مواطني، معرفة أفضل بطبقات الأهالي لأمة من أهم أمم العالم وذلك برسم صورة مفصلة لسكان أكبر مدينة عربية -القاهرة-» (نجيب، 1983: 308) وقد إنطلق في ذلك من كتاب ألف ليلة وليلة حتى يجعل القصص تعبر عن حياة المجتمع العربي في القرون الوسطى، كما نجد أيضا ترجمة "المقدمة" لابن خلدون من طرف (البارون دي سلان) الذي ترجم أيضا "تاريخ البربر" ونلاحظ أن هذا المستشرق هو المترجم الرئيسي لجيوش شمال إفريقية الفرنسية.

ويبدو أن هناك من المستشرقين من لم يعجبه فكر ابن خلدون النير -بعد أن تعرف عليه من خلال الترجمة- ومنهم غوتيه الذي قال: «إن ابن خلدون يريد أن يتفهم الأمور وذلك أمر يعتبر غريبا بالنسبة لمسلم من المسلمين».

ويبدو أن غوتيه أستاذ التاريخ قد قال جملة السابقة تحت تأثيره واندھاشه من صاحب المقدمة، الذي تأثر به عدد هائل من المستشرقين، منهم هامار (Hammer) وفريتاغ (Freytag) من ألمانيا، والخوري لانسي (Lanci) من إيطاليا، وغارسان دو تاسي (Garsin de Tassi) وكوكبير دو مونبري (Coquebert de Monbrey) من فرنسا. وإذا كانت المقدمة لم تكتشف إلا في القرن التاسع عشر -

وهو شيء غير متأكد منه- في أوروبا، فهناك من يقول بوجود ترجمة للمقدمة باللاتينية ظهرت في 1697م، وهناك من يرى أن ابن خلدون قد أثر في كثير من المفكرين الغربيين مثل بودان (Bodin) ومكيافيلي (Machiavel)، وأوغست كونت (Comte)، وهيجل (Hegel)، وماركس (Marx)، ولعل هذا التأثير بالمقدمة كفكر علمي لا يضاهيه إلا التأثير بألف ليلة وليلة -الذي ذكرناه سابقا- حيث نجد أول ترجمة لقصص ألف ليلة وليلة إلى الفرنسية تم في 1704م على يد جالان (Galland)، وللإنجليزية في 1706م (ترجمة قريب ستريت-GrubStreet)

وهذا التأثير بالفكر الأدبي الإسلامي العربي نلاحظه في قول (فريدريك فون ديرلاين) الذي يرى أن ازدهار الحكاية الخرافية بدأ منذ القرن الحادي عشر في الشرق، ومن المعروف أن أوروبا عرفت الحضارة الشرقية وأطلت على علومها وآدابها منذ الحروب الصليبية، ثم توالى المؤثرات حين إحتكت بالقسطنطينية (اسطنبول) شرقا، والأندلس وصقلية غربا .

الفكر الإستشراقي ومقصلة الترجمة :

من المعروف في الترجمة أن المترجم له مسؤولية أخلاقية اتجاه المؤلف واتجاه المتلقي في نفس الوقت، وبغض النظر عن التذكير بمختلف النظريات الترجمية التي تتعرض لأساليب الترجمة وكيفياتها والتي تحاول أن تجعل من الترجمة وسيلة للتواصل الحضاري والفكري عن طريق محاولة تأدية الرسالة الترجمية، بعيدا عن التشويه والتحريف الذي يوقع المترجم في الخيانة بالمفهوم اللغوي للكلمة، فإننا لو لاحظنا رؤية المستشرقين الذين يعدون « العرب نسخة مصدقة للقرآن العظيم، وهي نظرة تدرج في إطار البرنامج الفكري المتكامل المكرس لإثبات انحلال الشرقي، وهو ما أضفى الشرعية على إنحلال الشرق، تحت دعوى تحضير المجتمعات المتخلفة» (سعيد، 2005 : 79)

فلو وقفنا عند هذه النقطة فقط واستنادا إلى النظرية الوظيفية في الترجمة لكاتارينا رايس (Katarina Reiss) التي ترى في الترجمة أنها عملية تواصل ثنائي اللغة، يهدف في الغالب إلى إنتاج نص في اللغة الهدف يكون مكافئا من الناحية الوظيفية للنص المصدر. (ديداوي 200 : 56)

ويكفي للتدليل على ارتباط الإستشراق بالترجمة من جهة وارتباط الترجمة بالفكر الاستعماري أو بلغة الفكر الأيديولوجي، أن نعود إلى دور المطران راموندو، الذي قاد كنيسة طليطلة 1125م - 1152م، وعمل على تشجيع المترجمين من أجل

محاربة الإسلام من خلال أفكاره (Henrivan Hoof 1998:12) وقد تميزت هذه المرحلة بترجمة الكتب العلمية والفلسفية إلى اللغة اللاتينية من اللغة العربية. وهذه المرحلة تعرف في اسبانيا بمرحلة الاستعراب التبشيري، حيث تركز نشاط الاستعراب -وهو مصطلح يطلق على حركة الترجمة من العربية- في طبقة رجال الدين الذين كانوا يعرفون العربية واللاتينية. وقاموا باحتكار المعرفة والعلوم والتلاعب بها لأسباب خفية" ما يلفت النظر أن هذه المرحلة بدأت بشبه خطة مدروسة تتمثل في تجميع التراث العربي العلمي من الحواضر الأندلسية الإسلامية وحمله إلى الجهات التي استولوا عليها، فقد تهافت النصارى وخدامهم من اليهود على شراء التأليف العربية وأقبلوا على قراءتها وترجمتها ، ومنهم من ادعى ما ترجمه لنفسه أو لغيره من أهل ملته" (بنشيفة 1993 :68).

فترجمات المستشرقين تحاول تشويه النص الأصلي -الإسلامي طبعاً- بما يخدم الأغراض العدوانية الممثلة في تشويه الدين واللغة بدافع إيديولوجي بالدرجة الأولى، بعيداً عن رسالة الترجمة المقدسة.

فقد ذكر المستشرق (جولد تسيمر) أن كلمة "تستكبرون" في قوله تعالى :
 "وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ
 وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ" (الأعراف،48) قرئت "تستكثرون".

والمسلمون لم يعرفوا هذه القراءة في القراءات السبع المتواترة و الثلاث المشهورة. والأمثلة كثيرة عن هذه الدعاوى الإستشراقية التي يحاول أصحابها إعادة قراءة القرآن بشكل موضوعي.ولسنا في حاجة إلى القول أن الهدف الحقيقي وراء تلك الدعاوى هو محاولة التشكيك في مصادر الدين لإبعاد المسلمين عن دينهم باعتباره سبباً لتخلفهم.

إنّ الترجمات التي قام بها المستشرقون يبدو وأنها قامت لأهداف إيديولوجية (ضرب الإسلام)، وهذه الأهداف والتمسك بها هي التي تحول الترجمة عن غايتها لتصبح آلية لتشجيع الغزو الثقافي والهيمنة الفكرية بفعل انخراط المترجم في الإيديولوجية عن طريق اللجوء إلى آليات الحذف و الإضافة و التبديل (التعديل). فالتبديل يظهر في تحريف الكلمات وإعطائها على نحو مغاير لما أراد النص الأصلي، و تتمثل الإضافة في التوسع في شروحات مقصودة من طرف المترجم، أما الحذف فيتجلى في إختزال النص الأصلي من خلال محو مقاطع أو حتى صفحات كاملة لأنها لا تتناسب مع ذوق المترجم وآرائه.وقد يلجأ المترجم إلى عملية الانتحاء عن طريق تحويل دلالة المصطلحات والمفاهيم بغرض توسيع دلالتها الجديدة وتشويهها.

وكل هذه الآليات والأساليب الترجمية وإن كانت في علم الترجمة تدرج في عنصر الترجمة والمثاقفة (Acculturation) اعتمادا على التواصل الثقافي الذي يجعلنا نهتم بالتغاير (Alterité) والغربة (Étrangeté) والمضايقة (hospitalité) وغيرها، فإن استعمال هذه الأساليب والميكانيزمات التي تقرها الترجمة هو استعمال مغرض - كما هو مبين في البحث - وكمثال على ذلك نضيف إلى ما قلناه سابقا، قول قولني في القرن الثامن عشر في كتابه "الآثار": "يمكن لمحمد أن يكون إمبراطورية سياسية و دينية على حساب موسى و المسيح...إن الله جعل محمدا وزيره في الأرض، وأعطاه العالم ليخضع بالسيف كل من رفض الاقتناع بقانونه" (جعيط، 1983: 224)

وبناء على كل ذلك يرى قولني استنادا إلى المعطيات القروسطية البالية، التي أصبحت تقليدا حيا وموروثا ضاغطا على أفق الفكر الإستشراقي المغرض، يرى أن الإسلام هو منبع المبالغات والانحرافات في أنظمة الفكر، وأن المؤسسات الاجتماعية والسياسية هي سبب انحطاط المجتمع الشرقي.

ونجد المفكرين الذين قاموا بترجمة الكثير من المؤلفات الإسلامية التي أستند إليها الفكر التنويري الأوروبي، قد سكتوا أو شجعوا المغالطات التي أتى بها المستشرقون -المنحدرون أصلا من مؤسسات دينية مسيحية- التي ترى وتزعم أن الشعوب الإسلامية "شعوب تنتمي أساسا إلى السيف" و أن الطبع الإسلامي متأثر بالفكر الديني الذي يكرس الاستسلام التام لإرادة النبي المعتمدة على الطغيان .

الخلاصة :

إنَّ الحركة الإستشراقية في كثير من جوانبها حاولت ترجمة مؤلفات العرب والمسلمين دون إعطاء أصحابها حقها من الثناء تارة ودون الإشارة إلى إيجابياتها وفضائلها ونسبها إلى غير أصحابها تارة أخرى والتشكيك فيها في الكثير من الأحيان، وهو ما أدى إلى نظرة معادية من المسلمين إلى الغرب المتمدن ومحاولة مقاومة الغزو الثقافي بوسائل لا تخدم لا المسلمين ولا الغرب و إنما تكرس نظرة العداء بين الإسلام والغرب، رغم أن الإسلام في حقيقته هو دين الإنسانية جمعاء لأنه موجه إلى كل البشر، وما على الإنسان الباحث عن النظرة الإنسانية للدين إلا الرجوع إلى مبادئه بكل صدق و إخلاص، ومحاولة ترجمة مؤلفات المسلمين بكل أمانة وهو ما عبر عنه إدوارد سعيد في كتابه الإستشراق حين قال "في الإستشراق أنا لا أتحدث عن الإسلام، بل عن وصف الغرب للإسلام، و أقدم نقدا للأسس التي يقف عليها ذلك الوصف وهدافه" (سعيد، 2008: 474).

ولعل السبب الذي دعا إدوارد سعيد إلى محاولة تغيير النظرة إلى الإستشراق هو محاولة إيجاد نظرة جديدة لاستخدام الإستشراق كوسيلة للصراع ولن يتأثر ذلك إلا من خلال الترجمة النزيهة التي تحاول الابتعاد عن الايدولوجيا المشوهة للعملية الترجمية .

قائمة المراجع:

- 1-اسمايلوفتش: "الإستشراق والأدب العربي المعاصر" ، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت، العدد32، يونيو 1983.
- 2-بنشريفة، محمد: "الجذور التاريخية للاستعراب الإسباني في المغرب في الدراسات الإستشراقية". مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، مراكش، د.ط.
- 3-جعيط، هشام: "أوروبا والإسلام"، مقال في مجلة الفكر العربي معهد الإنماء العربي، بيروت، العدد 32، يونيو 1983.
- 4-جلبي، عبد الرزاق: "دراسات في المجتمع والثقافة و الشخصية". دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989.
- 5- ديداوي، محمد: "الترجمة والتواصل"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2000.
- 6- سعيد، إدوارد: "السلطة والسياسة والثقافة"، حوارات مع ادوارد سعيد، تقديم/ غاوري فسواناثان، تر/نائلة قلقيلي حجازي، دار الآداب، بيروت، ط2008، 1.
- 7- سعيد، إدوارد: "الاستشراق"، تر/كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، طرابلس 2005.
- 8- عبد الغني، مصطفى: "شهرزاد في الفكر العربي الحديث". دار الشرق، بيروت، الطبعة الأولى، (1985).
- 9- نجيب، ناجي: "الرحلة إلى الغرب والرحلة إلى الشرق- صراع بين الحضارات-" مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت ، العدد32، يونيو1983.
- 10-يونغ، لويس: "العرب وأوروبا" ترجمة ميشال أرزق، دار الطليعة، بيروت، 1979 .
- 11- Hammat, Abdelhalim : *Orientalism, in Edward Fitzgerald - Seen Through His Adaptation of Omar Khayyam`s Quatrains*
- رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراة في اللغة الإنجليزية بمعهد اللغات الأجنبية بجامعة الجزائر، جانفي 1978.
- 12 -Van Hoof,H : *Esquisse pour une histoire de la traduction en Espagne*, juronymus complutonsis 1998.